البحث عن الذات الفلسطينية

مسيرة إنتماء ذاتية

د. خليل نخـلة

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية ـ القدس

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، مؤسسة فلسطينية مستقلة لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية وغير مرتبطة بأي جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتهدف إلى الإسهام في التعريف في المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني وإطارها القومي العربي وبعدها الإنساني والدولي من خلال جهود أكاديمية علمية موضوعية.

إن ما ورد في هذه المطبوعة من آراء وأفكار، تعبر عن وجهة نظر الكاتب الشخصية ولا تعكس أو تمثل بالضرورة موقف أو رأي الجمعية. ويأتي نشر هذا الكتاب ضمن برنامج البحوث في الجمعية وبدعم من مؤسسة فريدريخ ايبرت الألمانية (FES) في القدس.

جميع الحقوق © محفوظة للجمعية والكاتب
الطبعة الأولى – كانون أول ٢٠٠٥

مطبوعات PASSIA
هاتف : ٦٢٦٤٤٢٦ (٠٢) فاكس : ٦٢٨٢٨١٩ (٠٢)
بريد إلكتروني: passia@palnet.com
صفحة الإنترنيت: http: //www.passia.org
ص. ب ١٩٥٤٥ – القدس

بأي فلسطين أفكر؟ وكيف سلبت هذه الـ فلسطين مني*

(مسيرة إنتماء ذاتية)

أنا من جيل نكبة فلسطين الأولى—نكبة ١٩٤٨. ما أدركت من فلسطين، آنذاك، هو ما يدركه طفل في الخامسة من عمره، مما يشاء أن يخزنه في ذاكرته من ذعر وتدمير ورؤية جيوش غريبة تحتل قريته وبيته، وتقذفه خارج البيت والقرية، وتسمح له بالعودة إليهما فيما بعد. وما إختلط من هذا المخزون بروايات الأهل المتكررة "كيف كرتونا من بيوتنا ..."، والتي أصبحت جزءاً غير منفصل عن الـ "فلسطين" التي أفكر بها. لم أكن أعرفها كالـ "فلسطين" التي أدركتها فيما بعد، ولكن عرفتها "كقرية" و"كبيت"، لا أكثر.

•

كبرت حتى نهاية مرحلة الدراسة الإبتدائية ولم أعرف عن "فلسطين" شيئا، كما لم أعرف شيئا عن البيئة العربية المحيطة بي. لم أدرس عنها في الكتب المدرسية، ولا في أماكن أخرى. بدأت أستشف الشيئ اليسير عما ساد من حياة في القرية، قبل أن أخذت بالتفتت والإضمحلال والتشوه تحت وطأة النكبة والحكم الغريب، وذلك من خلال السرد الشفوي الذي لم ينقطع والدايّ عن تكراره، بمناسبة و بغير مناسبة: الثورة ضد الإنجليز، وكيف تم نقل الرسائل الشفوية والسلاح من هنا إلى هناك، كيف كان ينقل الزيت والزيتون على الدواب خلال الموسم من قريتي- الرامة إلى بنت جبيل وأماكن أخرى في جنوب لبنان، وكيف كان "الناس" يتسللون ليلا من لبنان إلى قراهم

* أود ان اعبر عن عميق شكري لصديقي و زميلي د.عبد الرحيم الشيخ للتدقيق اللغوي و لتجميل النص.

في الجليل التي شردوا عنها، إلى آخره.

خلال هذه الفترة، ربما حتى منتصف الخمسينات، ومن بيئة البيت الشفوية، بدأت أدرك شيئا فشيئا وجود علاقة تجارية، وربما إنتمائية، بين قريتي ولبنان، ربما بسبب الجغرافية، ولكن لم أكن أدرك شيئا عن وجود أناس "مثلي" في مناطق أخرى في بيئتي الضيقة، مثل المثلث والنقب، وقطعا لم أكن أدرك شيئا عن القدس وغزة والضفة. ما أذكره عن القدس، في حينه، هو "بوابة مندلبوم" حيث كان يسمح للمسيحيين في مواسم أعيادهم العبور من تلك "البوابة" لزيارة الأماكن المقدسة، وزيارة أقربائهم المهجرين في الأردن أو لبنان، طبعا بعد الحصول على تصريح خاص من الحكم العسكري الإسرائيلي، وعن طريق الواسطة. أدرك ذلك لأن أمي حصلت على هكذا تصريح، وقامت بتلك الزيارة، وعادت بعد أن إشترت "دزينة" صحون "صيني" للضيوف. هذه هي القدس التي علقت في ذاكرتي آنذاك. كان ذلك فضاء آخر، بعيدا كل البعد عن مستوى إدراكي وحسّي. وفيما يخص فلسطين وإمتداداتها العربية، كنت في عزلة جغرافية وتاريخية وتربوية وحضارية تامة. بالرغم من أن أبي قرر شراء راديو (يعمل على بطارية ١٢ فولت!) عندما إغتيل الملك عبدالله في القدس. وبدأ، منذئذ، يسمع الأخبار بإنتظام كل ساعة خلال النهار، من أول نشرة في الصباح الباكر حتى يخلد إلى النوم. وبقي على هذه الحال رغم دخول الكهرباء والتلفزيون إلى البيت، حتى وفاته.

في هذه العزلة الشاملة، وفي غياب أي خطاب وسرد بديلين ومجابهين للخطاب الإسرائيلي اليهودي المهيمن، شُحنت، أنا وأبناء جيلي، بأساطير بطولة "الشعب اليهودي" وإبداعه على امتداد "تاريخه"، وبأن خلق الدولة اليهودية الحديثة، والإنتصار على كل القوى المناوئة، والجيوش العربية مجتمعة، ما هو إلا إثبات آخر على إبداع "العقل اليهودي" وعبقريته. سمعنا، وحفظنا

عن ظهرٍ القلب، كلمات النشيد الوطني "اليهودي" لإسرائيل، وكررناه نصا و ترتيلاً. درسنا أشعار أدباء يهود وكتاباتهم التي عجت بآمال "الشعب اليهودي" ومآزقه، ولم نعرف شيئا عن آمال شعبنا ومآزقه. تعرضت في تلك المرحلة، كأبناء جيلي، "لفبركة" ممنهجة للإدراك والوعي، إذ أصبحنا نتوق أن نكون جزءً، ولو هامشيا وعن طريق الصدفة، من هذه العبقرية "الجينية" اليهودية التي تطور الأرض، وتخلق دولا لم تكن بدايات إدراكي لفلسطين إرتبطت مع بداية الإدراك للإستعمار الغربي علينا كعرب من خلال حرب السويس. بدأت، خلال مرحلة الدراسة الثانوية، في بيئة المدرسة الداخلية (أو للدقة ما كانت تدعى "الميتم")، في الناصرة، بعيدا عن البيت، أسمع وأقرأ وأناقش وأتأثر بمقالات هيكل الأسبوعية في الأهرام، حول مصر وعبد الناصر والهجمة الإستعمارية الغربية على مصر، ودول عدم الإنحياز والدور الطليعي لعبد الناصر، ومجابهة الإستغلال والإستعمار الكولونيالي، إلى آخره. لم نقرأ تلك المقالات الأسبوعية، بل سمعناها، إذ أذكر إنتظارها بفارغ الصبر كل يوم جمعة بعد الظهر. كانت المقالات تقرأ وتذاع على الراديو وكأنها جزء من مسلسل روائي. ما أذكره هو أن هذه المقالات لم تكن عن فلسطين خصيصا، ولكن، كما بدا لي، فإن فلسطين قبعت دائما في هوامشها. للمفارقة، بدأت أفكر بالوصول والتواصل مع فلسطين، وأنا كائن في قلبها، من خلال الفضاء العربي الأوسع الذي تجسّد، آنئذٍ، في دور مصر وصدارتها في هذا الفضاء. لكن أي فلسطين تلك التي أردت "التواصل" معها؟ لا أذكر وجود فكرة مبلورة لدي.

بدأت هويتي تتطور كهوية عربية متناقضة مع محيطي المحتل من خلال تفاعلي اليومي مع أصدقائي وزملائي في جو المدرسة "الداخلية"—مدرسة المطران في الناصرة، الزملاء الذين جاء بعضهم من قرى هجرت ودمرت (مثل إقرث وبرعم)، وبعضهم الآخر من مدن عربية، أضحت مدناً مختلطة (مثل الرملة

واللد وعكا) جراء الإحتلال. لكن، لم يتوفر الفضاء الضروري لإمتداد تلك الهوية في غياب حركة مبلورة للتحرر الوطني. مفصل التناقض مع وجودي، كعربي مضطهد في الكيان السياسي اليهودي الجديد الذي فرض علي، تمحور في فكرة "الإستعمار" ونهجه، وتيقنت، أخيراً، بأن القومية العربية هي الترياق الوحيد لخلخة تلك الفكرة وذلك النهج. لكن أي "قومية عربية"؟ لا أذكر وجود فكرة مبلورة لدي.

عبرت عن آرائي خلال تلك الفترة في بعض الصحف المحلية، ولكن لم أكتب عن فلسطين مباشرة، إذ إن مفهوم فلسطين السياسي كان غائبا عن ذهني. كتبت عن فلسطين "المعاشة" يوما بعد يوم في إطار متناقض وغريب. هاجمت في آرائي، التي نشرتها آنذاك، أولئك "العرب" المتعاونين مع النظام الإستعماري الجديد الذي فرض علي، وبعضهم كانوا أقربائي، إما من خلال التعاون مع أحزاب صهيونية في الكنيست لكسب أصوات أقاربهم في الإنتخابات، وإما من خلال السمسرة لبيع اراضي السكان العرب الأصليين لليهود، إلى آخره. ولكن ذلك كان دون وجود فكرة مبلورة لدي عن طبيعة الإحتلال وعن تغييب فلسطين. بالرغم من غياب المفاهيم والمسميات الملائمة في ذهني لوصف النظام الجديد، إلا أنه أصبح واضحا جدا بالنسبة لي، حينما تخرجت من المدرسة الثانوية، بأن ممارسة النظام الجديد تجاهي تتسم بالعنصرية المكشوفة، فقط لعدم كوني يهوديا.

في تلك الفترة (أي في السنوات الثلاث الأولى من عقد الستينات) وأنا أهيئ نفسي للسفر للولايات المتحدة الأمريكية للدراسة الجامعية، تسارعت عدة تفاعلات، في بيئتي المحلية وفي العالم، رسّخت في ذهني وذاكرتي، عنصرية النظام البنيوية تجاهي وتجاه كل "غير اليهود". كما أكدت لي أن أرضنا كعرب وكسكان أصليين في هذا البلد مهددة فعلا للسرقة من قبل النظام

العنصري الذي استعملها لصالح اليهود (كما سرقت أراضي القرى الثلاث المجاورة لقريتي: نحف ودير الأسد والبعنة، لتأسيس مستعمرة كرميئيل عليها). وبالرغم من نهج النضال العربي-اليهودي الذي طرحه الحزب الشيوعي الإسرائيلي لتحقيق المساواة "للأقلية العربية في إسرائيل"، لم أشارك في تلك الرؤية وذلك النهج لعدم قناعتي بأن هدف "المساواة" قابل للتحقق ما دامت العنصرية هي نتاج لبنية النظام الصهيوني اليهودي المرتكز في تعريفه على إقصاء قوميات أخرى غير يهودية.

وأما في الفضاء العالمي، فأدركت، ونحن نتابع الدراما المرعبة والمجابهة العسكرية الوشيكة بين الإتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية حول كوبا، بأننا، كعرب، وكشعوب أخرى، مستهدفون من الإستعمار الأمريكي، ما دمنا لا ندور في الفلك الأمريكي، أو ما دمنا نحاول إنتهاج وإختبار مبادئ مختلفة للحكم والإقتصاد.

حينما ذهبت لأتابع دراستي الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن في قريتي شبكة كهرباء تضيئ أزقتنا المعتمة، بينما كانت أنوار المستعمرات اليهودية على التلال المجاورة تتندر بعتمة الجليل العربي. كما أن ينابيع المياه الطبيعية التي إعتمدت عليها القرية لمعيشتها، منذ أن وجدت، تمت مصادرتها وإحتواؤها وتقنينها في إطار الشبكة القطرية الإسرائيلية للمياه. وبهذا تلاشى الشعور اليسير الذي كان لدينا حول إمكانية التفكير بنوع من الإستقلالية "المموضعة"، على الأقل.

خرجت من إسرائيل بهوية ذاتية عنوانها "عربي إسرائيلي"، ولكن من الواضح لم تكن هناك أية مقاربة بين هذه الهوية وهوية الآخر "اليهودي الإسرائيلي"، الذي فرض نفسه علي بالقوة. لم يكن لدي في ذلك الوقت أية هوية أخرى،

والشق العربي من هذه الهوية لم يكن مطوّرا على الإطلاق، بإستثناء بعض الرموز الثقافية والتاريخية. كما لم تتوفر لدي منابع ثقافية وسياسية ونضالية مساندة لأستقي منها عناصر إضافية لتعزيز مخزون هذه الهوية.

خلال دراستي للبكالوريوس كنت معزولا عن بيئتي الطبيعية التي تركتها، وعن أي إمتداد عربي. كنت في جامعة تحت إشراف الرهبان البندكتيين ضمن مجموعة "الطلبة الأجانب" (اليوم أصبحت تسميتهم "الطلبة الدوليين") والتي شملت، بالإضافة لي، طالبين عربيين، أحدهما مقدسي الأصل كان يعيش مع أسرته في إنجلترا، والآخر مقدسي الأصل كان يعيش مع أسرته في الأردن. غير ان أياً منهما لم يكن فلسطينيا. كما شملت هذه المجموعة طلبة من كينيا وجزر البهاما والمكسيك، وغيرها. تحدثنا في المناسبات عن الأرض المقدسة (ليس عن الإحتلال)، عن العادات والتقاليد والمأكولات العربية، إلى آخره. شحنت خلال فترة دراستي في الثلاث سنوات ونصف، من خلال المحاضرات والقراءات والمساقات، بموضوعات تعزز وترسخ ما يسمى "بالتراث اليهودي-المسيحي". مع أن تخصصي كان "علم الإجتماع"، لكن بحكم الواقع كنت أدرس "العلوم الإجتماعية الغربية". لم يكن الإسلام، ولا الفكر الإجتماعي العربي، حاضرا في هذه الموضوعات، مما زاد من عزلتي الثقافية والفكرية الأصيلة. لم أعد إلى "البلاد" ولو لمرة واحدة خلال هذه الفترة. ولكن عدت للمرة الأولى منذ سفري، أنا وزوجتي، بعد شهر واحد على إحتلال القدس والضفة الغربية وقطاع غزة والجولان. هذا الإحتلال هو ذاته الاحتلال الذي تابعت أخباره من خلال الإعلام الأمريكي، ومن خلال راديو للموجات القصيرة إشتريته خصيصا لهذا الغرض. تابعت أخبار "حرب الأيام الستة" من أمريكا بشعور عميق من اليأس والخجل.

خلال العودة الأولى للبلاد، بعد أن أنهيت البكالوريوس وتزوجت، أي في

شهر تموز ١٩٦٧، دخلت القدس الشرقية للمرة الأولى في حياتي. لم ندر كيف تلمسنا طريقنا، أنا وزوجتي الأمريكية، وعثرنا، عن طريق التجربة والخطأ، بباب العامود. وتمكنا في نهاية المطاف من الولوج إلى قلب البلدة القديمة، إلى عالم غريب لم نكن نفقهه ... كان جزءً من فلسطين ولكن تم بتره لصالح الأردن، وعاد لفلسطين ثانية (ربما ثالثة ورابعة!) نتيجة الإحتلال العسكري الإسرائيلي، عاد ولكن ليس كما يعود العضو المبتور إلى جسمه، طبيعيا وعضويا. ومن خلال هذه الزيارة، تعرفنا أيضا بصورة عابرة على أجزاء أخرى من فلسطين كأريحا، ورام الله، ونابلس، وجنين— كانت محجوبة عنا، وفتحت لنا للمرة الأولى.

بغية إتمام دراستي العليا للماجستير والدكتوراة، حيث تخصصت في علم الإنسان، إنتقلت إلى جامعة أخرى يقارب عدد طلابها خمسين ألفاً، وفي ولاية أمريكية أخرى، حيث قضيت أربع سنوات. خلال تلك المرحلة شهدت الساحة الأمريكية تفاعلات نشطة وتناقضات وهيجان إجتماعي وسياسي نتيجة حرب فيتنام. وأثارت تلك الحرب وحركات الإحتجاج الشعبية، وعنصرية النظام الأمريكي الموجهة تجاه المواطنين السود والسكان الأمريكيين الأصليين والنساء وجميع الفئات السكانية التي لم تكن من ألعرق الأبيض-البروتستانتي-الأنجلوساكسوني، تساؤلات وسجالات أدت إلى تعميق إدراكي ووعيي لمفهوم الإستعمار الكولونيالي الأمريكي وطبيعة ممارساته، وحول مفاهيم العنصرية وتطبيقها بالإعتماد على شرعية المبادئ والخرافات الدينية. بدأت أقرأ بعمق وشمولية عن تلك الموضوعات المترابطة. قرأت عن طبيعة المجتمعات البشرية وتاريخها والقيم الحضارية وطبيعة الأفكار العنصرية وأسس الهيمنة الفكرية والسياسية والإقتصادية في المجتمعات البشرية وكيف تتأصل شرعية القانون والحكم، وكيف يمكن إحداث تغيير وتحول في المجتمعات الإنسانية. كلما قرأت أكثر، كلما وجدت من السهل الربط بين

ما كان يدور على الساحة الأمريكية في تلك المرحلة وما حدث ويحدث في فلسطين. أصبحت الأمور مترابطة في ذهني. تطور إدراكي لمفهوم فلسطين الجغرافية التاريخية، التي إستهدفت واحتلت وتقطعت أوصالها، وشمل هذا المفهوم بمضمونه كل فلسطين. كما توضح إدراكي أكثر لماهية العنصرية والإيديولوجية التي نتعرض لها، كعرب مواطنين داخل النظام الكولونيالي الإسرائيلي، وكجزء من الشعب العربي الفلسطيني. أصبحت أفكر في "ألأنا" الفلسطيني كجزء غير منفصل عن "النحن" الفلسطيني. هنا، تلاشى أملي وتراجع بقدرة "القومية العربية" أن تكون العصى السحرية لخلخلة المشروع الإستعماري.

خلال هذه المرحلة وأثناء وجودي في الجامعة تعرفت على طلاب آخرين آتين من دول عربية. الكثير منهم كان مبتعثا من دولهم ولم يبدوا أية دافعية للتحصيل العلمي، وكأن الوقت غير مهم، وكأن الهدف من وجودهم هناك هو النقاهة، والاستجمام، وقضاء الوقت في "الكافتيريا". بدايات تفاعلي معهم كانت مريبة بسبب كوني "عربيا من إسرائيل"، باستثناء بعض الطلاب الفلسطينيين القادمين من مخيمات اللجوء في لبنان. لكن هذه الريبة لم تدم كثيرا نتيجة إصطفافنا في مخيم واحد ضد الحرب في فيتنام، وإدراك طبيعة التحالف العضوي بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية وإنعكاسات ذلك على ما كان يدور في فلسطين آنذاك.

كان من متطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في علم الإنسان أن أجريت سنة من البحث الميداني في "إسرائيل"، حيث ركزت على دراسة طبيعة الحكم المحلي في قريتين عربيتين في الجليل، ومدى تأثر هذا الحكم بوطأة النظام السياسي العنصري المفروض عليه، من ناحية، وإستبداد العلاقات العائلية والطائفية والقيمية التقليدية، من الناحية الأخرى. درست العلاقات

والتفاعلات الإجتماعية والإقتصادية المحلية في هاتين القريتين، والتحولات المجتمعية المحلية التي طرأت خلال العشرين سنة منذ الإحتلال الإسرائيلي (دراستي الميدانية كانت في ١٩٧٠/١٩٧١)، كما درست وبحثت بعمق التحالفات الإجتماعية السياسية لإنتخابات المجالس المحلية، ومدى تأثرها بالتغلغل المتواصل لأجهزة المخابرات الإسرائيلية، وبحثت بدقة وبتصميم نظام الملكية وتوزيع الأراضي، والنمط التاريخي الإجتماعي الإقتصادي لتحول ملكية الأراضي، وإستراتيجية تحجيم هاتين القريتين وتأطيرهما من خلال مصادرة الأراضي لصالح المستعمرات اليهودية المجاورة.

في هذا السياق، أيضاً، راجعت تاريخ الجليل، كجزء من التاريخ العربي-الإسلامي-الدرزي-المسيحي لهذه المنطقة حتى وصلت إلى الشيخ ظاهر العمر وشبه إستقلاله عن الحكم المركزي العثماني، وتمركزه في شفاعمرو. وبدأت أدرك، ولو جزئيا، جوهر وآليات الحراك السكاني الذي تحدى الخطوط السياسية الإدارية المفروضة اليوم، وكيف تفاعل الناس بين فئاتهم المختلفة كجزء من وحدة جغرافية أكبر، إعتمدت تنقلاتهم في داخلها على إعتبارات السعي وراء المعيشة أو العلم أو هروبا من الإضطهاد والإجراءات التعسفية، إذا توفر لديهم السبيل. وفي المحصلة تمكنت من فهم جزيئيات هذا المجتمع الذي درسته وتعمقت في بحثه، كما أدركت تكامل هذه الجزيئيات وتنافرها خلال الفترات المختلفة من هذا التاريخ، وكيف أوجدت، في لحظات تكاملها، مجتمعا متماسكا ومتكافلا تغذي قيمه وعاداته وطقوسه وتفاعلاته المختلفة الواحدة الأخرى، وكيف فككت، في لحظات تنافرها، النسيج الإجتماعي الحضاري الموروث، وعرّته ليغدو هدفا سهلا للإستعمار وللتسلط بالقوة. ولذلك، سعيت بوعي ودأب كي أجد منابع مخزون هذه الطاقة المجتمعية الذاتية التي ستحمي "مجتمعي" من التفتت والإندثار. وتوصلت إلى قناعة بأن محور هذه الطاقة هو وضوح الرؤية والفكر والغاية لما نريد، ولكيفية تحقيق

ما نريد.

هذا المجتمع الصغير الذي درسته على المستوى المحلي التفصيلي (الميكرو) أخذ يتطور في مفهومي إلى المجتمع الكبير الذي أصبح "وطني"، وهو الوطن الذي جسّد إدراكي لماهية "فلسطين" التي أتوق لها.

بعد أن انهيت شهادة الدكتوراة وبدأت أعلم في جامعة أمريكية، دعيت كمحاضر ضيف للتدريس في جامعة حيفا للعام الدراسي ١٩٧٥/١٩٧٦، وكان ذلك بهدف المساهمة في تأسيس وترسيخ برنامج للماجستير في علم الإنسان. في تلك الفترة كانت جامعة حيفا تنظر لنفسها كجامعة إسرائيلية صهيونية "لبرالية" . كما كانت تحوي بين طلبتها أكبر نسبة من الطلبة العرب، بسبب قربها من التجمعات السكانية العربية الرئيسية. للمرة الأولى تدعو جامعة إسرائيلية محاضرا ضيفا "غير يهودي". وللمرة الأولى، حسبما أعرف، لم تقم الجامعة بتغطية مصاريف السفر للمحاضر الضيف! وعندما إستفسرت عن سبب الرفض قيل لي، بشكل واضح لا يدعو للتأويل أو اللبس ولا ينمّ عن أي إعتذار، بأن "الوكالة اليهودية العالمية" هي المصدر الذي يغطي هذه المصاريف، وهي تغطي المصاريف للمدعوين اليهود فقط. بالرغم عن ذلك، ونتيجة لقناعتي الذاتية بأهمية قضاء هذه السنة في جامعة حيفا وإمكانية التفاعل مع الطلبة العرب الجامعيين، نجحت بإقناع جامعتي في الولايات المتحدة بتغطية تكاليف سفري مع أسرتي الصغيرة.

في محاضرتي الأولى، والتي سجّل لها، على ما أذكر، حوالي مئة وعشرون طالبا وطالبة يهوداً وعرباً، عبرت، للمرة الأولى، عن هويتي وإنتمائي بوضوح تام بأنني "فلسطيني من قرية الرامة في الجليل"، وكتبت إسمي وإنتمائي على اللوح. بعض الطلبة اليهود إحتجوا على هذا الإنتماء من منطلق أنه لا

يوجد فلسطينيون في الجليل، وأننا "فقط عرب إسرائيليون". أما رد فعل الطلبة العرب فتمثل في إبتسامات عريضة. وهذا هو المفهوم الذي وجّه تفاعلاتي خلال العام وأضاءها مع الطلبة العرب وأعضاء هيئة التدريس العرب، والذين لم يزد عددهم عن خمسة، من جهة، ومع الطلبة اليهود وإدارة الجامعة، من جهة أخرى. وهكذا، تمحور تصرفي وتمركز تفاعلي خلال العام على الإدراك، ورفع الوعي لهذا الإدراك، بأننا في إسرائيل جزء عضوي من شعب محتل، قبع تحت الإحتلال الإسرائيلي منذ تأسيس الدولة اليهودية في ١٩٤٨. وأن إطار الدولة الذي نعيش فيه غير مقبول لنا ما دام يحدد نفسه كدولة يهودية، لها حق أسمى علينا، وتمارس العنصرية وتشّرعن الإحتلال الكولونيالي والقمع التعسفي ضدي وضد شعبي على أساس عدم يهوديتنا، وعلى أساس أنه لا مكان لنا كشعب في فلسطين/إسرائيل. "يوم الأرض"، الذي حدث وأنا أدرّس في جامعة حيفا، حيث قتلت القوات الإسرائيلية ستة فلسطينيين لإحتجاجهم على مصادرة الأراضي العربية لصالح مخطط "تهويد الجليل"، كان نموذجا حيا وإثباتا قاطعا لهذا الإدراك.

في أعقاب "يوم الأرض" بأشهر (تحديدا في ١٩٧٦/٩/١٨)، كتبت مقالة قصيرة تحت عنوان "آراء حول واقعنا القومي" لنشرة "المنجل" (إصدار لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في القدس). عبّرت في تلك المقالة عن رأيي حول علاقتنا كأقلية قومية في الدولة الصهيونية، مع تلك الدولة ومع شعبنا الفلسطيني، بهذه الكلمات:

"في رأيي، يجب أن نرفض فكرة مصادرة الأراضي العربية لا لأن الأراضي المزمع مصادرتها هي أراضي غير وعرية وغير صخرية، ولا لأن التطوير يخص فقط المستوطنات اليهودية، ولكن لأن مبدأ المصادرة في هذا الإطار ينبع من مبدأ التمييز القومي الصهيوني ويعطي مسبقا الأولوية في هذه

البلاد لما يسمى بالشعب اليهودي. رفضنا ليس نابعا من إنعزالية قومية عربية، إذ أن نظاما يقوم على المساواة المطلقة بين أفراد من مختلف القوميات في هذه البلاد هو نظام مقبول لدي.

إن الذين يرفضون قبول إسرائيل في حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ لا يرفضونها لأنهم لا يعترفون بحق الشعب اليهودي في هذه البلاد بتحقيق مصيره، ولا لأنهم شوفينيون لا يطيقون التعايش في هذه البلاد مع قوميات أخرى، بل لأن الرجوع إلى حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ لا يضمن أي تغيير في الإطار الأيديولوجي لهذه الدولة، هذا الإطار الذي يرفضونه كأقلية خاضعة له ويرفضونه في أية حدود إعتباطية أخرى.

يجب في رأيي أن نحدد موقفنا على أساس الإرتباط العضوي بين الجليل والضفة، وبين أم الفحم والخليل، أرتباط جزأين من شعب واحد وإلا لفقدت مطالبنا بالمساواة فحواها ولفقد إنتماؤنا القومي كنهه."

في تلك الأثناء كان الحزب الشيوعي الإسرائيلي، بتركيبته العربية اليهودية الجديدة بعد الإنشقاق، والذي أصبح معروفا "بالحركة الشيوعية الجديدة" (راكاح)، المصدر الوحيد والمنظم للتنشئة والتثقيف السياسي داخل الأقلية العربية الفلسطينية في إسرائيل. لم يثقف الحزب على أساس "فلسطنة"، أو تنمية الهوية الوطنية الفلسطينية لدى الأجيال الناشئة في الأقلية العربية في إسرائيل، بل العكس هو الصحيح. هذه القوة التثقيفية المنظمة عملت بجد وثبات على تخفيض السقف الإنتمائي الفلسطيني للفلسطينيين في إسرائيل بحيث أصبح محور التركيز على، ما سمي، "بالجماهير العربية في إسرائيل"، أو في "البلاد"، وتخفيض مفهوم "الأقلية القومية" وتمييعه، وأن محور نضال هذه "الجماهير" هو نضال لتحقيق "المساواة" في نظام يميز ضدهم من منطلق عنصري، دون التطرق النضالي لأيديولوجية هذا النظام التي تمنع، بحكم التعريف، إمكانية "المساواة في الحقوق" لأقلية غير يهودية، ولجزء من شعب

يناضل لتحقيق حريته، ولكنه محروم من تحقيقها بسبب هذه الأيدولوجية عينها. ما هو مفهوم كوننا فلسطينيين؟ هل نحن جزء من حركة التحرر الوطني الفلسطيني، أم أن علاقتنا مع الأجزاء الأخرى من شعبنا تحت الإحتلال هي علاقة تعاضد وتضامن؟ وهذا ما أدى إلى تخفيض مستديم في مدى جذرية الأسئلة المطروحة آنذاك، والمسموح بطرحها، وفي المفاهيم التي تغذي تلك الأسئلة.

خلال السنة التي قضيتها في جامعة حيفا، أجريت بحثا ميدانيا حول العلاقة بين الوعي القومي والتعليم الجامعي، بين الطلاب والخريجين العرب. حاولت، من خلال هذا البحث، أن أحلل وأفهم الحالة السائدة بين الطلاب والجامعيين العرب، والتي سميتها "عدم الفاعلية والنجاعة القومية". ركزت في عملية التحليل والتفكيك هذه على عناصر التثقيف والتعليم الرسمي الذي يتعرض له الطلبة الفلسطينيون في إسرائيل، وعلى قوقعة المضامين التعليمية التربوية الثقافية وإنعزالها عن سياقها الثقافي العربي، كما ركزت على تحليل بعض المبادرات الإيجابية التي هدفت إلى تحقيق "التغيير المنشود" في المفاهيم الإنتمائية القومية، والتي كانت جميعها مبادرات أهلية. (نشر هذا البحث باللغة الإنجليزية تحت عنوان "المأزق الفلسطيني: الوعي القومي والتعليم الجامعي في إسرائيل"، ١٩٧٩).

بعد قضاء سنة في جامعة حيفا، عدت إلى التدريس في جامعتي في الولايات المتحدة الأمريكية. منذ تلك الفترة إلى أن تركت الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٨٤، إنغمست بعمق في نشاطات رابطة الخريجين العرب، التي دأبت، من خلال منشوراتها العلمية الملتزمة، تثقيف الرأي العام الأمريكي والعربي حول فلسطين. نجاعة عمل الرابطة كانت متدنية، ووقع المجهود الفكري والسياسي الذي بذل لم يحظ بالمستوى المنشود لعدة أسباب، منها:

عدم التجانس الفكري والتناسق بالأهداف بين أعضائها، الذي عكس عدم التجانس الفكري لدى الفئات المختلفة التي كونت منظمة التحرير الفلسطينية، والتي بذلت، من خلال قنواتها المتصلة مع بعض أصحاب القرار ومؤسسي الرابطة، مجهودا متواصلا للتأثير على عمل الرابطة على الساحة الأمريكية. وهكذا، فالخط الرئيسي للرابطة أصبح صدى للخط الرئيسي في منظمة التحرير الفلسطينية، والذي كان "مبهما" وغير واضح، ومختزلا إلى حده الأدنى في نقطتين: الدفاع والحفاظ على المنظمة كجسم شرعي يمثل الفلسطينيين، والدعوة لتحرير فلسطين. هذا كان الخط الجامع والموحد. تدريجيا، أصبح التثقيف حول النقطة الأولى سهلا في ضوء إضفاء الشرعية على المنظمة من قبل الأمم المتحدة. أما التثقيف على النقطة الثانية فلم يكن سهلا إذ تطلب ذلك مفهوما واضحا وإدراكا تفصيليا –والذي كان غائبا—لماهية هذا التحرير وماهية هذه الـ "فلسطين". وأصبح العمل على هذه النقطة غاية في التعقيد كلما تذبذب موقف المنظمة بخصوص قراءتها لما يريده الشعب الفلسطيني، ولما يخطط له أعداؤه.

دعونا في أدبياتنا وفي مظاهراتنا لتحرير "فلسطين" دون أن نحدد أية فلسطين. تدهور الموقف "النضالي" كلما تدهور موقف المنظمة. أحيانا كان القاسم المشترك لنضالنا الفلسطيني في الولايات المتحدة المضمون التقدمي
ضد الكولونيالية والإستعمار، وسعينا، على هذا الأساس، لإستقطاب قوى وتنظيمات مناهضة للإستعمار من دول العالم الثالث، التي تضامنت مع النضال الفلسطيني بسبب الربط الجلي بينه وبين نضالاتهم. لكن هذا الوضع لم يستمر بسبب عدم تماسك الرؤية النضالية الفلسطينية، من جهة، وعدم قناعة جزء من عضوية رابطة الخريجين العرب بمبدأية وآلية هذا النضال المناهض للكولونيالية، من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، بعدما إنتخبت رئيسا لرابطة الخريجين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية للعام ١٩٨١،

أدخلت "عامودا" جديدا في "نشرة" الرابطة الفصلية ليتضمن رسالة تحت توقيع الرئيس حول قضايا جوهرية وإستراتيجية تخص عمل الرابطة. ومن القضايا التي ركزت عليها في إحدى هذه الرسائل (نشرة رابطة الخريجين العرب من الجامعات الأمريكية، آذار-نيسان ١٩٨١) كانت ضرورة ربط نضالنا الفلسطيني، كمواطنين ومقيمين في أمريكا، للتحرر ومكافحة الإضطهاد والعنصرية الصهيونية، مع نضالات زملائنا السود في أمريكا، وزملائنا من السكان الأصليين، وزملائنا من حركات التحرر في العالم الثالث، المقيمين في أمريكا، والذين يكافحون ضد الإضطهاد والعنصرية بأشكالها المختلفة. وأن قاعدة العمل المشترك مبنية على الإدراك المشترك في المفاهيم بأن نضالنا ضد القمع والعنصرية الصهيونية وتحقيق الحرية لا يختلف جوهريا عن نضال الزملاء السود من جنوب أفريقيا، أو الزملاء من هيتي أو إلسلفادور، أو السكان الأصليين في أمريكا. في تلك الرسالة، قلت بالتحديد: "واجب علينا أن نعرّي ونجابه الأيديولوجيات العنصرية الأخرى التي تغذي الصهيونية، وألا نسمح بأن نزّج في موقف إعتذاري ودفاعي لنتحاشى الهجوم الذي يستهدفنا في إطار ما يسمى "بشبكة الإرهاب العالمي"، بل علينا أن نأخذ المبادرة بتعرية ومجابهة "شبكة العنصرية والإضطهاد والعسكرة العالمية"، والتي للدولة الصهيونية دور أساسي فيها." جاءت ردود فعل من بعض الأعضاء تتهمني "بتسييس" الرابطة، وكأن الرابطة هي ناد إجتماعي للمثقفين!

أخذ نضالنا، كفلسطينيين مقيمين في أمريكا في إطار رابطة الخريجين العرب منذ تأسيسها في أعقاب إحتلال العام ١٩٦٧، والذي إعتمد مبدأ "تقرير المصير"، أخذ يتراجع، نتيجة تفاعل وتناسق في مواقف "الجبهة الوطنية الفلسطينية في الأرض المحتلة"، وما سمي بالإتجاه "الثوري الواقعي" في منظمة التحرير، إلى مطلب "إنهاء الإحتلال في المناطق الفلسطينية التي احتلت في حرب ١٩٦٧". وآل هذا الموقف تدريجيا وباستمرار إلى إهمال مناطق

أخرى من فلسطين (مناطق ١٩٤٨)، وأجزاء أخرى من الشعب الفلسطيني، ووضعها خارج إطار الحلول المقترحة.

حاولت دوما تأكيد المفهوم، الذي يمثل رأيي، والذي ينظر لفلسطين كوحدة واحدة متكاملة، ويؤكد على الربط العضوي بين مناطق ١٩٦٧ ومناطق ١٩٤٨ (إذ كان من غير المقبول لدى الآخرين إستعمال كلمة "إسرائيل"). في مؤتمر الخريجين العرب المنعقد في تشرين الثاني ١٩٨٠، قدمت دراسة تحليلية تحت عنوان "وقفة تقييمية للنضال الفلسطيني تحت الإحتلال". كان التركيز في تلك الدراسة على نضال الفلسطينيين في إسرائيل. خلصت في تلك الدراسة التقييمية إلى الإستنتاج التالي :

"جادلت بأننا بلغنا مرحلة في نضالنا تحت الإحتلال تتطلب منا أن نستعرض بجدية ومن دون إعتذار ما فعلنا وإلى أين نتجه. وبتقييم منطلقات وأهداف ونتائج ما فعلنا حتى الآن. أشعر أن تلك العملية قد إستهلكت مواردها المنطقية أو أننا، بعبارة أخرى، قد بلغنا الطريق المسدود دون إجتياز المسافة المطلوبة بأكملها.
وأنطلق في وجهات نظري عما ينبغي عمله من إقتناعي بأن:
أولا، لا يمكن تجزئة التحرر. أي أنه لا يمكن أن نسعى إلى التحرر من نظام سياسي قمعي من دون عقلية تناضل من أجل التحرر من جميع أنواع الإضطهاد.
ثانيا، إن تعريف الواقع هو في حد ذاته واقع. وبناء على هذا فإن تفكيك واقع قمعي مفروض لا بد أن يبدأ بتفكيك النموذج الفكري الذي أوجده.
ثالثا، موردنا الرئيسي هو طاقتنا الجماعية المخزونة في الشعب بمجرد تحويلها كليا إلى عقلية متقبلة للتحرر."

(نشرت المحاضرة في ورقة خاصة، بالإنجليزية، ولكنها ترجمت ونشرت أيضا بالعربية على ثلاث حلقات متتالية في صحيفة الشرق الأوسط الصادرة في لندن، ١٠-١٢/١٢/١٩٨٠، وإهتمت المخابرات الإسرائيلية بما جاء فيها وتمت ترجمتها في وثيقة داخلية إلى العبرية.)

خلال العام ١٩٧٩-١٩٨٠ كنت عضوا في فريق من الأكاديميين الفلسطينيين والعرب، تحت رئاسة المرحوم د. إبراهيم أبو لغد، لإجراء دراسة الجدوى "لجامعة فلسطين المفتوحة" (التي تحولت بعد الإجتياح الإسرائيلي للبنان إلى "جامعة القدس المفتوحة"). تحددت مسؤوليتي في كتابة فصل تحليلي عن النظام التعليمي للفلسطينيين تحت السلطة الإسرائيلية، أي في التجمعات الفلسطينية في إسرائيل والضفة الغربية وقطاع غزة. وقضيت تلك السنة مقيما في الجليل، حيث كنت أيضا منسقا لبرامج المنح الدراسية الجامعية التابع لصندوق القدس في واشنطن، والذي إستهدف الطلاب الجامعيين العرب الفلسطينيين الذين يدرسون في الجامعات الإسرائيلية. شاركت، آنذاك، بالمفهوم والقناعة بأن الربط بين أجزاء الشعب الفلسطيني، مبدئيا على الأقل في أرض فلسطين وفي تجمعات اللاجئين في المنطقة، قابل للتطبيق من خلال مؤسسات وأنشطة تعليمية وثقافية. ومن هذا المنطلق، كانت المبادرة لإنشاء "جامعة فلسطين المفتوحة" مبادرة إستراتيجية ذات أهمية.

وفي سياق تنسيق برنامج المنح الدراسية التابع لصندوق القدس، توفرت الفرص لي لكي أتفاعل مع الطلبة والقوى الوطنية التقدمية الأخرى في التجمعات الفلسطينية في إسرائيل. ففي محاضرة للطلبة العرب في الجامعة العبرية في القدس "حول الوضع الحالي للثورة الفلسطينية وعلاقة القوى الوطنية التقدمية بها" (في ٢٧ شباط ١٩٨٠)، أعدت التأكيد على النقاط التي تركز على ضرورة ربطنا عضويا مع حركة التحرر الوطني الفلسطيني،

كجزء أساسي من هذا الشعب، إستمر في البقاء على أرضه، ولو سمي هذا الجزء من الأرض "إسرائيل". هناك، أكدت بأن مسؤوليتنا هي الإصرار على التفاعل مع الثورة الفلسطينية بنهج فكري تحليلي نقدي، نابع من ظروفنا الموضوعية، لكن لا يسعى لتكريسها بل لتغييرها في إتجاه إستراتيجية واضحة. كما طرحت في تلك المحاضرة بأن هويتنا الحضارية والسياسية هي فلسطينية كما هي هوية الفلسطينيين الذين ولدوا في مخيمات اللجوء أو في مدن وقرى الضفة الغربية وغزة، أو في دول الخليج أو في أمريكا. وقلت، إنه يجب أن يكون التأكيد هنا أشد وباقتناع أعمق على كوننا ولدنا على أرضنا وبقينا فيها، بغض النظر عن النظام السياسي الذي فرض علينا. ولذلك فإنها مسؤوليتنا أن نفرض على قيادات الثورة الفلسطينية بألا تقبل بحلول تؤدي إلى تجزئة هذا الشعب وهذه الأرض.

حاولت، من خلال كتاباتي وفي جميع المناسبات المتاحة، رفع مستوى الإدراك وتطوير مفهوم الربط بين أجزاء فلسطين المتناثرة، ليس فقط من حيث التركيز على وحدانية وتكامل فلسطين، كجغرافية وتاريخ، في تخطيطنا الإستراتيجي، ولكن أيضا من خلال إدراك واع ومدروس لمفهوم عدونا، وعدو الـ "فلسطين" التي نناضل من أجلها، هذا المفهوم الممارس فعليا على الأرض. ففي مرحلة إقامتي في معهد الدراسات العربية في بوسطن، لفترة أربع سنوات، كمدير وزميل مقيم، وقبل الإجتياح الإسرائيلي للبنان بأشهر قليلة، كتبت مقالة باللغة الإنجليزية تحت عنوان "الجليلان" (نشرتها فيما بعد رابطة الخريجين العرب في سلسة أوراق خاصة، رقم ٧ ، في أيلول ١٩٨٢). بيّنت في هذه المقالة المقاربة الدقيقة في الممارسة الصهيونية في نهج تهويد الجليل والضفة الغربية، من حيث التركيز على إستعمال الإحتلال العسكري في مصادرة الأراضي والإستعمار الإستيطاني، للوصول إلى الهدف الأيديولوجي. وإستنتجت في المقالة "بأن المخططين الإستراتيجيين الصهاينة،

ولتحقيق أهدافهم بعيدة المدى، لم يألوا جهدا في الإصرار على الربط المبدئي بين الجليل والضفة الغربية. ولتحقيق أهدافنا للتحرر الفعلي، لا يسعنا نحن إلا أن نؤكد على هذا الإصرار بعينه".

كمسؤول عن التخطيط لبرامج مؤسسة التعاون وسلامة تنفيذها، منذ نشأتها ولفترة ثماني سنوات (من ١٩٨٤-١٩٩٢)، وتحت المظلة الإستراتيجية للمؤسسة التي حدّدت نشاطها في جميع مناطق فلسطين التاريخية، عملت جاهدا من خلال توفير الدعم المادي اللازم للنشاطات التي تحاول الربط العضوي بين التجمعات الفلسطينية المتناثرة في أربعة رياح أرض فلسطين. قدمت التبريرات الوطنية والثقافية لإقناع أعضاء اللجنة التنفيذية—ونجحت في غالبية الأحيان—لتوفير دعم للنشاطات التي ترسخ الوجود العربي الفلسطيني في المدن المختلطة المهددة "بالتهويد" الثقافي، تحديدا في يافا وحيفا وعكا واللد والرملة. كما عملت بجد على دعم المؤسسات الأهلية الثقافية والتربوية والإجتماعية التي تنشط في تعزيز الهوية الفلسطينية وترسيخ الإنتماء الثقافي للتجمعات العربية الفلسطينية، التي بقيت على أرضها، تحت هيمنة سياسية وايديولوجية يهودية صهيونية مغايرة، تسعى جادة لتشويه هذه الهوية وتغييبها. وكانت الفرضية الموجّهة، بما شملته من قناعة ذاتية، أنه من خلال العمل الدؤوب والمستديم قد يحصل وقع تراكمي على مستوى الإدراك والمفاهيم، مما قد يؤدي إلى الترابط والتكامل بين أجزاء فلسطين المتناثرة، جغرافيا وتاريخيا، وبالتالي، إلى تعظيم طاقاتنا الذاتية الجماعية المقاومة.

التراكم والإستدامة لم يتحققا. أصبح واضحا فيما بعد، لي على الأقل، بأن هذه الأهداف لم تكن ضمن قناعة وإدراك وإلتزام أصحاب "الرأسمال الوطني"، أو أصحاب القرار الفعليين في المؤسسة. بل بالعكس، إذ تركزت قناعتهم وحرصهم الشديد على عدم الإلحاق بمصالحهم الإقتصادية، وعلى

الحفاظ على خط مهادن مع الجناح المسيطر في منظمة التحرير الفلسطينية. لقد تحول هذا الخط (أي الإحجام عن محاولات الربط بين أجزاء فلسطين المتناثرة) إلى موقف رسمي في إعلان المجلس الوطني الفلسطيني للإستقلال من الجزائر في ١٩٨٨، والذي مهّد للقبول، الرسمي والعلني، بتجزئة فلسطين، جغرافية وشعبا، من خلال توقيع المنظمة على إتفاقيات أوسلو وما لحقها من إتفاقيات وتفاهمات.

عدت مع زوجتي بعد غياب عن أرض فلسطين دام ثلاثين عاما. عدت، ولكن لم تكن عودتي كعودة زكريا محمد (التي وصفها في "الراهب الكوري")، مثلا، وعودة الفلسطينيين الآخرين مثله، الذين هجروا قسرا. لم أعد من منفى قسري. إذ عندما سافرت في السفينة من ميناء حيفا لدراستي الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٦٣، كنت أنا من حدّد موعد السفر آنذاك، وفقا لمتطلبات التقويم الجامعي. وعندما عدت، كنت أنا وزوجتي اللذان حددنا موعد العودة، كمرحلة مفصلية من خطتنا الحياتية، ووفقا لمتطلبات أسرتنا الصغيرة، حيث أصبحنا مستقلين، إلى درجة ما، عن ولدينا اللذين توجها، كل في طريقه، لتحقيق ذاته.

عدنا إلى "فلسطين" من سويسرا قبل أسبوع فقط من توقيع "إتفاق المبادئ"، الذي شاهدناه على شاشة التلفاز من بيتنا المستأجر في بيت جالا. عدت لأرى وأعيش "فلسطين" التي فكرت بها دائما، ودأبت على تطوير إدراكي تجاهها، وجاهدت خلال سنوات عدة لتطوير وتهذيب المفاهيم الأكثر ملاءمة لها ... عدت وقناعتي وإدراكي بأنه لا يوجد فارق جوهري بين قريتي—مسقط رأسي—في الجليل وبين بيت جالا حيث إستقررنا لأربع سنوات، وبالتالي لم أبذل مجهودا يذكر للإجابة على السؤال الذي تردد: "لماذا عدت إلى بيت جالا؟". كانت إجابتي دائما "ولم لا؟". بيت جالا، في إدراكي، هي جزء

من نفس الأرض وتتسم بنفس التاريخ الفلسطيني العريض وتتألم من نفس الجراح!

ساد الشارع في تلك الفترة شعور طوباوي جرفنا معه، بأن حالة سلم ستعمّ المنطقة، بالرغم من أن إتفاقات أوسلو إختزلت الجغرافيا الفلسطينية وفتتت وحدة الشعب. لكنها، في الوقت ذاته، شرعنت إسم "فلسطين" وتركت مضمونه فضفاضا ليسمح لكل فلسطيني مقيم في فلسطين أن يضيق حدود التعريف أو يوسعها. فدون نقاش أو تبرير أو مجهود ذهني أو قناعة نضالية أو إلتزام سياسي وطني أصبح بمقدورنا أن نستعمل مصطلح "فلسطين" في مراسلاتنا أو كتاباتنا، دون التحديد إذا كنا نقصد بيت جالا، أو رام الله (حيث نعيش اليوم)، أو المناطق تحت إشراف السلطة الوطنية الفلسطينية، أو فلسطين التاريخية. كان هذا على مستوى الخطاب فقط. فعليا، عدت إلى فلسطين مشرذمة، حيث فقدان الإتجاه وغياب التماسك الإجتماعي، فلسطين التي تضيق وتنكمش شيئا فشيئا مع كتابة هذه الكلمات. عدت إلى فلسطين التي تم إختزالها من فكرة وطن إلى حقيقة مدينة أو قرية. عدت بمحض إرادتي لأعيش في "فلسطين اليوم" المتناقضة كليا مع إدراكي المتطور لها.

* * *

PASSIA